الثقافة القومية والثقافة الدينية

صراع أم حوار؟

خالد الكركي*

ملخص

الإسلام هو الذي شكل الهوية العامة للأمة، وجعلها في موضع فكري متقدم، ولا يـزال حـصننا الـذي نلجـأ إليـه أمـام التحـديات. النمـوذج العباسي والأندلسي يشهد على إمكان التعايش بين القوميـات والأديـان والمذاهب المختلفة. إننا بحاجة إلى يقظة الوجدان لنصعد بالروح والرؤيـة إلى زمن جديد تكون فيـه الـروح والرؤيـة ممتـدتين في الأفـق القـومي والمناخ الإسلامي دون تناقض. إن الأمر منوط بالتحرر الـذاتي والـوعي على الواقع والمستقبل، حتى تـصعد الأمـة إلى يقظـة تـدخل بهـا دروب المستقبل، بثقافة تستكمل الحياة الكريمة كما أراد الإسلام بـروح رسـالته العظيمة.

---

* - مفكر وناقد من الأردن..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إضاءة(١) مدخل:

هذا موضوع في الأمة والهوية، والأمة والتراث، والأمة والحريّة، بل في الوجود القومي، وفي صلة هذا الوجود بالعقيدة. وفيه إشارات وعلامات على أسئلة تفصيلية ذات صلة بالثقافة التي تشكّلت من حضور الأمة، وحضارتها، وحربها، وسلامها ، وغنائها وحزنها، ومنذ أن شكل البيت العتيق مواسمها الدينية الأولى، إلى أن بكى الطلل أوجاع فتيتها، وتحوّل تراب وادي عُذره إلى لون دماء عشّاقها، وصار المربد أفقها الخطابي، والحرية عدو حاكمها المستبد، والفقيه حليف سلطانها العتيد.

المصطلحان الرئيسان في هذا الباب هما الأمة والثقافة، ولستُ بصدد الخوض في أدبيات الحوار حولهما أو في تعريفاتهما، فالأمة هي الجماعة، والعرب في إطار الإسلام جزء من أمة الإسلام...

أما الثقافة التي تتشكل في الفرد والجماعة ضمن إطار الأمة الواحدة، وتحدد هويته الوطنية والقومية والدينية، فهي أيضًا موضع حوار وجدل، وتعريفات تضيق وتتسع، وتتحول في حالات بعينها إلى نتاج السلطة المستبدة ظنًا منها أن الثقافة حالة شمولية في الفكر والسياسة والحياة.. وأن السياسي هو مرجع الثقافي.. وهذا خلط يرد عليه بأن الثقافة وعي على الحياة، وسلوك بحجم هذا الوعي الذي لابد أن يكون إنسانيًا، وملتزمًا بالحرية والعدل والتقدم وكرامة الإنسان.

وفي هذا السياق تحضر أسئلة الثقافة في زمن «الخطابات» التي يقتطع كل منها مساحة من الفكر والإبداع والثقافة ليؤسس حالة خاصة به، فهناك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطاب «التراث»، وخطاب «الحداثة» وخطاب «الهوية» وخطاب «الاستبداد».. وخطاب الإعلام.. مع أن سؤال التقدم واحد، وتحضر هذه كلها في سياقه، كما أن سؤال الثقافة واحد مهما بدا في تفاصيله من حالات الاختلاف والتنوع، لأن الأصل فيه أن يقبل هذا الاختلاف وذاك التنوع مادام الحديث عن مشروع قومي (عربي ـ إسلامي) هو الذي يشغل أهل الفكر والثقافة الذين يلتزمون بنهضة الأمة، ويؤسسون مستقبلها على مركزية الحرية أولا، مع إدراكهم العميق للدور الذي يتشكل من خلال مركزية العقيدة والتراث في المشروع كله.

إننا لا نريد استعادة محتويات ذاكرة نسقية تراثية تشبعت بآراء مجتمع سلطوي له في الظلم والاستبداد، والتشظي العرقي والطائفي مشاهد وموجود، بل نتوقع أن نفهم ـ في حالة الأمة ـ أن النسق يستحضر روح الرسالة الإنسانية، وعمق التأويلات الفكرية والفلسفية للحرية والعدل والحياة، وحضور العقل في رونقه واشتعال قَلَقِه، دون أن يغيب عن البال أن هناك «ثقافة» مشوهة في ذهن «المستبد» يريد تسويقها بين الناس، بينما الزمن لا يقبل إلا ثقافة «الديمقراطية» الذي يعرف أن الفعل الثقافي ليس استعادة للأساطير والخرافات، ولا قبولاً لما هو قائم باعتباره نهائياً، بل هو في العمق الإنساني رفض لكل ما ينافي حرية الإنسان، وعقله، وإنسانيته، وحقوقه، ذلك أن مصائر الناس رهن بإراداتهم وليست رجمًا بالغيب في ذهن سياسي عاجز من فهم الحرية، أو متعلم ظن أن نهاية الأمر في بناء الحضارة هو بما في ذهنه من معلومات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يدرك الذين يشغلهم حال الأمة ومشروعها في الحرية والتقدم أن المشهد مزدحم بإرث سياسي ثقافي متنوع وهائل، وفيه من الخير بمقدار ما فيه من الشر، ومن الجميل مثل ما فيه من القبيح، ومن السجون فوق ما به من المدارس، ومن الظلم مثل ما فيه من العدل ويزيد. ويدركون أيضا أن ثنائيات حادة ماتزال حاضرة تنبئ بالصراع الفكري وغير الفكري، ولها مروجون ودعاة يتعصبون لهذا الجانب أو ذاك، وإذا دققنا في المشهد لاحظنا كم من الكلام والورق أهدرنا في جدلنا العقيم حول القديم والجديد، والأصالة والمعاصرة، والإيمان والعلم، والقبيلة والدولة، والمثقف والسلطة، والإسلام والعروبة، والثابت والمتحول، والسلفيين والحداثيين، والتقليد والتنوير، والغرب والشرق، والمركزية التراثية والمركزية العربية؛ وغيرها مما نظمه إبراهيم غلوم في مصفوفتين واحدة تراثية والثانية حداثية (انظر كتابه: الثقافة وإنتاج الديمقراطية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٦-٣٧).

ويدرك الملاحظ أيضا أن بحث أمر الثقافة والتقدم يقودنا حكمًا إلى الاتجاهات الليبرالية العلمانية ذات الصلة بالمفاهيم البورجوازية العربية، وقد يتجه دعاة هذا الاتجاه قطريًا أو قوميًا، ثم يأخذنا إلى الاتجاهات اليسارية ذات الوجه الماركسي في نشوئها وتحولاتها، وما وقع لأحلامها المثالية على امتداد العقدين الآخرين، ثم تلك الاتجاهات والتيارات التي تشكل «المد» الإسلامي أو «الصحوة» كما تردد في أدبيات المرحلة، وما تفرّع عن ذلك من تنظيمات وأحزاب جهادية وتكفيرية؛ وانكشاف المشهد عن صراع جديد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشعل الاستعمار فتنته، ويمهد للاستفادة منه، ثم يتهم الإسلام بالإرهاب، مع أنه يبحث عن صورة لعدو ينفذ من خلال الصراع معه إلى المنطقة كلها، نفطها، وجغرافيتها وثقافتها، ودورها.. وهذا سؤال جوهري في موقف الأمة الثقافي مما تتعرض له من تهميش وقهر واحتلال.

كأن علينا واجب «إغاثة الأمة في كشف الغمة»، وأصل النداء عنوان كتاب للمقريزي حول تاريخ المجاعات، وحال الأمة في زمانه، وفيه جرأة خاصة في تحديد أسباب البلاء والغلاء الذي أصاب الأمة في زمانه (كتب النص سنة ٨٠٨هـ)، اذ رأى محن الغلاء تعود لآفات سماوية كقصور جري النيل، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره، وكذلك الجراد.. ويتبع ذلك ولاية المناصب الدينية والخطط السلطانية بالرشوة، ثم غلاء الأطيان ورواج الفلوس..

ولست بصدد عرض الكتاب، لكننا رأينا مجاعات في زماننا هذا والنفط فوق ظهورنا محمول، ورأينا جميعاً كيف تجلس الأمة في مقاعد المتفرجين على حركة التاريخ وصناعته، وكيف نغرق في جدل عقيم حول قضايا صغيرة بينما الدنيا من حولنا بين طامع وحاقد وانتهازي وكاذب.

وأقول: إننا في زمان تبدو فيه الثقافة نائية عن مشهد الحياة التي نستحق أن تكون لنا كريمة وسمحة وعادلة، وتتقاسمنا تيارات في الفكر والسياسية: إسلامية معتدلة وأخرى متشددة، وقومية شمولية وأخرى تدّعي أنها ليبرالية وتغريبية جاحدة، تقلّب ذات اليسار وذات اليمين بين حول وآخر، ووطنية تغطّي إقليميتها بأردية إسلامية وعروبية حسب مقتضى الحال في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوطن العربي ـ الإسلامي الكبير.. وإلى جانب هذه التيارات الواضحة هناك تيار اللاأدرية النفعي الذي يظن صمته حكمة، وعزلته فلسفة، وهو من الأمرين بريء، لأن «البراجماتية» التي تتقدم المشهد كلّه عولمة وتفكيكاً، سوف تجرفهم في تيارها الصاخب للمشاركة في مشهد مفتعل، باسم حقوق الإنسان والديمقراطية وغيرها من دعوات.

أعرف أنه ليس قَدَراً أن تبقى ثقافة الأمة في إطارها العام معلقة بين هوى شرقي وآخر غربي، وأن المضطهدين والمستضعفين النائمين جوعًا وقهرًا في الفضاء العربي الإسلامي هم وحدهم أصحاب المصلحة في ثقافة مبصرة تقدم لهم رؤى حاسمة في الحرية والحق والعدل والتسامح، وهم الذين ينتظرون فضل الله العلي القدير في أن يمنّ عليهم بالحرية، لكن شرط الرضا غائب عنهم إن ظنوا أن صمتهم وسكونهم وموالاتهم للحاضر والثابت هو الذي يجعلهم مستحقين للحرية وللتحول نحو زمان جديد.

نحن نطرح السؤال في عنوان هذا المقال في زمن **المدّ الإمبراطوري الأمريكي الذي يحمل معه ثقافة العنف والأرض اليباب**، وكأن روما القديمة قد عادت كي تجعل البلدان ولايات تابعة لها، وحكامها قناصل في بلاطها ومجالسها؛ وكأن الذين يعلنون نهاية التاريخ إنما يعلنون ذلك كي يفسحوا الأمر للوحشية الرأسمالية، والذين يرون صراع الحضارات عند الحدود الدموية للإسلام (فوكاياما وهنتجتون) لا يرون من الأمر إلا ما يراه المحافظون الجدد الذين شكّلوا **إمبراطورية خاوية الروح، وعقيمة الثقافة في بعدها الإنساني، وعديمة التوجه نحو أهل الأرض كلّهم.**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقرأ هذا المشهد كلّه، ويجب أن لا تبقى فينا سذاجة فطرية، أو صمت خائف ونحن نرقب الحالة العامة للأمة، فالأزمة قائمة، والجراح عميقة، والبلاء المنتشر ظاهر ومستتر، ومراكز الدراسات التي تتشكل مثل الفطر في أرضنا، ومعها بعض مؤسسات المجتمع التي تتلقى الدّعم من الخارج لها دور التفكيك الطائفي والعرقي والثقافي، كأننا ساحة للتنقيب عن الآثار، وعند كل نقش نقيم كيانًا أو حزبًا أو جماعة تعلن الاختلاف مع الأمة.. **وقد نسينا أن التاريخ استراتيجية، والثقافة رؤية.. وأنهما قاعدة المفهوم الموحد للأمة، حتى لا تتشظى إلى وحدات عرقية وطائفية وإقليمية متناحرة.**

أجعل حديثي هذا محصورًا في الملامح العامة لثقافة الأمة العربية في بعديها القومي والديني، وهو حديث قد يمتد بالضرورة إلى الأمة في إطارها الإسلامي، ولا أحاول تبسيط الأمر في خطبة أو مقالة، فنحن في زمن الفرقة والتشظي الذي جعلنا على مثل حالنا يوم انهار السدّ، أو يوم اجتاحنا المغول والصليبيون، ويوم وقعت تلك القواصم نهضنا بعدها، فهل نحن اليوم مثل أجدادنا فاعلون!!

ومثل هذا الحديث لا يقبل جمود المنظّر الأيديولوجي، ولا دور الداعية الملتزم بطائفة، ولا صوت المثقف الذي يملي علينا من داخل الكهف بعض ما ظلّ في أوراقه من كلام، وهو لا يرى النور الذي يغمر الدنيا يوم تطلّ الحرية كما تطل الشمس من خدر أمّها كل صباح جديد، **فالأصل في الثقافة أن تكون تعليم الحرية للمضطهدين، والوقوف إلى جانب المستضعفين، وأن تعطي للأمة ملامحها التي تميّزها في عالم يضع الأقوياء الضعفاء من أهله في**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سياق القطيع الذي يملكون، أو القرية الكونية التي يدّعون، دون أن يظل لهم ـ أي الضعفاء ـ إرادة، أو وجه ثقافي متميز، أو حق في الرّفض والاحتجاج والثورة.

لقد تميّزت ثقافة الأمة يوم صعدت اللغة إلى ذروة إبداعها الشعري في الجاهلية، ويوم أطل الإسلام على الدنيا بالآية الأولى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، ويوم قرأ أهلنا الأوائل في كتاب الله معنى أن تكون القراءة باسم الله، ومعنى أن تكون مسؤولية: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾.

إن الثقافة التي يدور الجدل اليوم حولها واقفة، كما هم أهلها من النخبة ـ عند أبواب أربعة، تلفّهم الحيرة ويذبحهم التردد؛ **باب الله** الذين قرأوا كتابهم باسمه سبحانه، و**باب السلطان** الذي يظن أنه أبو جعفر المنصور يوم نادى في الناس: «أيها الناس إنّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده...»، وباب الشعب الذي هو وارث الأرض والحياة عليها، وصاحب الحق في ثرواتها وثوراتها، وباب الحُلُم الذي يقود إلى الانكفاء أو الإبداع، وعند هذه الحالة تبدو القراءة حرثًا في بحر واسع متلاطم وتبدو مصطلحات الإقليمي، والعرقي، والطائفي أمرًا مرعبًا في ليل البحث الطويل عن أفق مختلف وبهي وجميل.

لقد تطرق مثقفون متميزون لأبعاد **القضية الثقافية** عند العرب والمسلمين، ولا يسمح المجال هنا بعرض تفصيلي لآرائهم لكنني أكتفي بالإشارة إلى بعضهم، وباقتباس مهم من واحد منهم حول مواجهة الأمة للتحدي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحضاري الذي يجتاح العالم كلّه. يقول أحمد بهاء الدين: «..إن لنا في أرضنا جذورًا ضاربة إلى أعماق بعيدة جدًا، من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات والتقاليد.

هذه الجذور الضاربة إلى أعماق بعيدة في أرضنا قد طال بها الجفاف، لم تشرق عليها الشمس ولم يرو عطشها منذ أزمان وأزمان. لا شيء يجعل هذا كلّه يورق من جديد إلاّ تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد، فيتجدد شباب الشجرة الوارفة كلّها. تسقط منه الأرواق الميتة التي علقت بجوهر تراثنا في عصور الاضمحلال والظلام، وتزهر الغصون والأوراق الأصيلة المليئة بالحياة...».

إضاءة (٢) مصادر الثقافة العربية الإسلامية:

تحمل الأمة في سياق بحثها عن الذات علامات واضحة في تشكلها الثقافي والحضاري، منذ أن بدت بوادر الوعي في أشكالها القبلية والإبداعية حول مراكزها ودولها في الزمن الجاهلي. لست هنا بصدد البحث في تلك العناصر الأولى في الإحساس بالذات والتميّز في صورة شعب أو أمة، لكنّ ما هو جدير بالقراءة هو تلك القيم التي تشكلت لدى عرب الجزيرة الأوائل، ثم وجدت طريقها إلى الناس، وفيها شجاعتهم ومروءتهم وكرمهم، وحميتهم، واحترامهم للذات، وحرصهم على كراماتهم، حتى إذا جاء البعث الإسلامي وجدوا أنفسهم أمام أفق يمتد إلى آخر حدود الدنيا والحلم معًا، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وحين استكملوا التغيّر الإيجابي في أرواحهم انطلقوا على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خيلهم نفسها التي أصغت للنداء الجديد «إذا قيل خيل الله يومًا ألا اركبي»، فحملوا للعالم رسالتهم في مستوياتها الإلهية، والمعرفية، والاجتماعية؛ رسالتهم التي تبجّل العقل، وتضيء الوجدان، وتنشر العدل والمساواة بين الناس، وتحمل تميزًا خاصًا بهم، وهي أنهم يتحدثون بها للناس كافة، وأنهم مستعدون للشهادة باسم الله وفي سبيله.. وحين وجدوا الأمر قد استقر لهم، لم يغلقوا ثقافتهم ومعارفهم في وجه العالم الجديد الذي اختلطوا بأهله، بل قبلوا التنوع والاختلاف، وقرأوا كتب الأمم السابقة والمعاصرة، **حتى صارت بغداد وقرطبة مدينتين عالميتين في الفكر والسياسة والإبداع**؛ وبدت اليوم إنجازات ذلك الزمان مرجعية إنسانية (بسائر تجلياتها) لفهم موقف الأمة من الحرية والسياسة والاستبداد، وهذا هو الذي يحتاج قراءة جديدة بفكر تحليلي لا على طريقة الوعّاظ الذين التزموا بالسلطة ونأوا بأنفسهم عن التحريض والتجديد والتنوير.

ومصادر الثقافة هي في هذا كلّه، أعني الدّم الذي أرقناه عبر قرون طويلة، والحبر الذي شكلنا منه أمة المعرفة الحيّة والمخطوطات التي نشرت أو ما تزال بانتظار الشمس أن تزور خزائنها وكهوفها، ففي هذا كلّه (الفلسفة والعلم والسياسة والأدب) إشراقة الأمة في إطار الإسلام العظيم. **وهذا كلّه هو الذي شكّل الهوية العامة للأمة، وجعلها في موقع فكري متقدم، هذا الموقع الذي دمّر المغول مرّة والقشتاليون ثانية، والأمريكان ثالثة، وهو نفسه الذي نتحصّن فيه حين ننكفئ على أنفسنا بانتظار نهوضنا لرد عدو، أو ردع طامع، أو بناء ما تهدّم فينا من جديد. وكم تبدو صورة الهوية الواسعة**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاضرة يوم تصدّت الأمة لحملات الصليبيين، فقاتلت بسائر أعراقها وأديانها ضد ذلك الغزو حتى ردّته، وما ضرّها أن قائد حطين العظيم كردي، وقائد عين جالوت (ضد المغول) مملوكي، ودار ابن لقمان التي أسر فيها لويس التاسع عربي مصري...

لقد احتضنت شعوب كثيرة الإسلام، فصار دينها وحضارتها وثقافتها، وصارت حروف العربية حروف لغة بعضهم، وفي هذا الوعاء الإنساني تم صهر العناصر كلّها، وظلّ لكلٍّ خصوصيةٌ لا تتناقض مع الحدود العليا لدينه وثقافته الجديدة، ولم يكن مطلوبًا، على الرغم من الحالة الشعوبية، أن تستأصل فئة من المتحكمين غيرها، فقد اتسعت الدولة حتى عجز سيف الظلم أو الاحتلال عن القضاء على الأمة، ولم يتنكر العربي لشريكه في الرسالة والحضارة، ولم يغضب إلاّ قليلون لتراجع العرب عن مراكز السلطة السياسية...

ومن مصادر الثقافة في الأمة أيضًا الثقافات القومية للشعوب الاسلامية؛ والقوميات التي تشكل حضورًا باهرًا في أمتنا معروفة، وما من حاجة هنا لإعادة الأدوار العظيمة لأبناء هذه القوميات في عصورنا السالفة أو عصرنا الحاضر في رفعة الإسلام؛ وقد تجاور الفارابي وابن سينا والجاحظ والغزالي والمتنبي وأبو نواس والشافعي وآلاف الكتاب والمؤرخين والفقهاء والمحدثين، حتى استقام لأمتهم حضور في المشهد العالمي.. وأطلّ ابن رشد على الدنيا التي كانت غارقة في جهلها (أوروبا كما وصفها المقدسي وابن فضلان) فأضاء عتمتها. وأخفق الصليبيون في حملاتهم المتواصلة لأن ميزان الثقافة الإنسانية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفكر والفلسفة كانت لصالح أمتنا، وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ مشاهد جميلة لتفوق ثقافتنا التي عززت صمود أرواحنا وعسكرنا حتى طردناهم في زمن الأيوبيين، ثم في زمن المماليك، لأنهم لم يأتوا إلا بفضل الشجاعة (وهي كما يقول ابن منقذ موجودة في البهائم).

ومن مصادرها القومية ما حملته لغات الأقوام من فكر وفلسفة وفنون وآداب قبل دخولهم في الإسلام وبعده، فقد سقينا في العباسي شجرة الثقافة الإنسانية إغريقية وهندية وفارسية وتركية وكردية، ثم زرعنا بستاننا بتنوع يشبه شعب بوّان الذي كان كما كنا ـ بمنزلة الربيع من الزمان...

ومن مصادر هذه الثقافة الأول تاريخ الصراع مع أمم غازية أقامت في بلاد الأمة، ودول جوار قامت بيننا وبينها صدامات، وأخرى (أوروبا) ظلّ الأمر سجالاً وهي تطلّ علينا من وراء أسوار القسطنطينية ونحن نحاصرها، ومن صقلية، وجنوبي أوروبا كلّه، ومن جبال البيرنية، ثم تعود لنا في صورتها الصليبية، ويبلغ الصراع ذروته حول أسوار عكا يوم أخرجناهم، وحول أسوار القسطنطينية وجنود الإسلام يحققون انتصارهم التاريخي، وعلى بوابات غرناطة وصخرة أبي عبدالله الخارج مهزوماً من زمن الأندلس الجميل، لقد قام الصراع مع الروم وفارس ثم مع أوروبا، إلى امتداده ماوراء النهر وفي سهوب آسيا حتى تحقق حلم دول قامت باسم الإسلام، وحين هزم ساستها لم تهزم أرواح مساجدها ولا رسالتها، فامتدت بغير فتح، لأن لها ثقافة إنسانية تشكل منظومة قابلة للتقدم والحياة.

ومن مصادر هذه الثقافة أن أرض الرسالات والفتح كانت قريبة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأديان السماوية، وحين هزمت الوثنية وأشرقت رسالة الإسلام، ظل أهل الديانات الأخرى حاضرين في الدولة، وما من أحد يحتاج إلى شهادة في التسامح القومي والديني أبعد مما فعل المسلمون.

إن هذا التشكل الجميل هو الذي يغري الباحث بإضاءة نموذج واحد معاصر من وطنه الأردن، فعلى أرض هذا الوطن صورة للتسامح الإنساني الرفيع، فالأردن دولة عربية إسلامية في إطارها الدستوري، لكن مصادر الثقافة فيه متعددة، فهو وارث آثار الرومان المعروفة بما تمثله من تذكر لإمبراطورية قلّصها الإسلام، ثم حطّم جزءها الشرقي، وهو وارث تاريخ الهجرات العربية الأولى إلى هذا الجزء من بلاد الشام، وفيه الحضور المؤابي والأدومي والعموني والنبطي، وهو موطن سابق للغساسنة الذين تنصّروا، وقد ظل على أرضه من يمد نسبه إليهم، وفيه من زمن الفتح أضرحة شهداء مؤتة، وأضرحة صحابة قاتلوا على أرضه من معاذ بن جبل إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح. وفيه من زمن الإسلام الأول مكان التحكيم في أذرح، وفيه من بني أمية قصورهم وروافد جيشهم بالقادة والفرسان، ومن بني العباس الحميمة، وطلائع الثورة، ومن بني أيوب تحريرهم لأرضه، من المماليك امتدادهم وإنجازاتهم ومن بني عثمان قلاعهم وبقايا من لغتهم...

قبائل عربية ممتدة من زمن الجاهلية، حضر وبدو؛ وبينها غالبية مسلمة وأقلية مسيحية. مهاجرون مسلمون من بلاد القفقاس في أواخر القرن التاسع عشر بعد القهر والقمع القيصري، وهم الشركس والشيشان. مهاجرون أرمن (مسيحيون) في أوائل القرن العشرين بعد الصراع العنيف مع الأتراك في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحرب العالمية الأولى.

عناصر من الدروز الذين وصلوا بعد تراجع ثورة سوريا الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧) وقائدها سلطان الأطرش إلى الأردن، فلسطينيون ألقى بهم المصير الصعب لاجئين بعد حروب ١٩٤٨ و ١٩٦٧، عراقيون بعد الحصار وسقوط بغداد والخراب الذي صنعة الأمريكان. الشوام، التجار الذين قدموا من الشام منذ زمن بعيد واستقروا في الأردن. أكراد، وأتراك، ومغاربة وحجازيون، ويمنيون. كلّ هذه العناصر تشكل مجتمعًا فيه مؤاخاة وتسامح، وثقافات قومية ودينية ووطنية، وكلّ هذا يدفعني من موقع مَنْ عايش الحالة خمسين سنة إلى حلم بثقافة للأمة فيها تسامح ورفعة وقدرة على استيعاب العناصر كلها، **لأن أي انغلاق وعزلة يعني موت الحضارة والثقافة والحياة.**

إضاءة (٣) تجليات الحالة:

وفي باب الحديث عن ثقافة الأمة تبدو اللغة العربية التي حملت الحرية والمروءة، ثم كرّمت حين صارت لغة القرآن إعجازًا ورسالة، ولغة أهل البلاد الذين دخلوا في دين الله في المدى البعيد في الجغرافية، من حدود الصين إلى جبال غفت عندها أرواح فرسان معركة بلاط الشهداء في بدايات القرن الثاني الهجري، وتقف شاهدة، تؤذن في الغرب بالحرية والتسامح والفكر الحرّ، وتقيم هناك على مدى قرون ثمانية وضعت نهايتها يوم استشهاد موسى بن أبي الغسّان على باب غرناطة في ساعتها الأخيرة، حدًا لما سماه تشومكي (العام ٥٠١ - الغزو مستمر، ترجمة: مي النبهان، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ص ١٣) ثقافة التسامح الإنساني الإسلامي، وأشرع الأفق لثقافة الاستعمار الغربي في العنف والوحشية والعنصرية، من أواسط أفريقيا إلى قلب أمريكا اللاتينية أو الوسطى، مرورًا بآسيا كلّها عربية ومسلمة ووثنية.

إنّها العربية، أمّنا، وشجرة حريتنا، وإعجاز بياننا، أنها كما النخلة عند العرب عمة العرب، فالعربية أمّهم، وأي تفسير لظاهرة الحضارة الإسلامية يجد نفسه مجافيًا للحقيقة إن حضرت له فكرة قبول العامية، أو فصل العروبة عن الإسلام فالمنظومة الثقافية التي أنتجتها الحضارة الإسلامية في السياق العقلي (فلسفة وحوارًا) وفي السياق الفني (شعرًا ونثرًا) وفي السياق النضالي (مقاومة ودفاعًا عن الوطن والأمة) تشكل هوية الأمة خارج تشظي السلطة السياسية الإسلامية: إمارات، ودول طوائف، وخارج الخلايا التي ماتت وأصابت الجسد الواحد بالضعف والوهن.. إنّنا نرصد الحالات الإسلامية الأولى فنراها بعثًا وفتحًا، وإبداعًا فنيًا رفيعًا، وتفككًا في زمن لاحق، ونقرأ تجليات المشروع الأندلسي باعتباره صورة خاصة لما يمكن أن تكون عليه الأمة حين تنتصر للعقل، وتفتح نوافذها على العالم سماحة، وعلمًا، وإبداعًا رفيعا ويقظة للشهادة إن تعرضت للغزو، وكم دافعت الأندلس، على ضعفها، عن حضورها ورسالتها، ولا أظن أن أرواح المقاتلين بعيدة عن أرواح الذين صدّوا الصليبيين والمغول، فالنضال دوائر في سياق روح شاملة تشكلت منها الأمة بسائر العناصر التي دخلت في الإسلام، وأغنت مسيرته بالفرسان والثقافات الجديدة، والفكر الذي حمله هؤلاء معهم يوم انخرطوا في مسيرة الأمة دون إحساس بالضيق أو بتفوق العنصر العربي عليهم. وهاهو أبو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطيب المتنبي ينادي على سيف الدولة الفتى العربي المدافع عن شرف الأمة بعد معركة الحديث:

ولست مليكًا هازمًا لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئًا لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والإسلام أنّك سالم

لقد كان المتنبي عند حدود الإسلام نفسه وليس عند حدود المذهبية في موقفه الرسالي هذا. وليس الحديث في هذا الباب عن الصلة بين الثقافة القومية والثقافة الدينية بمنأى عن أسئلة تفصيلية، فقد يرى قارئ متميز أن الواقع الإسلامي يتشكل من قوميات إلى جانب العربية، ولها موروثاتها الثقافية، كما يتشكل من طوائف دينية إسلامية وغير إسلامية. فهل يمكن أن يقع الانصهار كي يعبّر كلٌ عن ثقافته بحرية في مجتمع تتبادل عناصره الاعتراف بخصوصياتها، في مناخ تصبح الثقافة فيه محركًا للديموقراطية، وصورة عن التسامح في قبول التعددية والاختلاف، ومن هذا المجتمع المستقر تشكل رؤية العلاقة بالآخر (الخارجي) على قواعد المساواة والعدل والاحترام؟

الجواب: إن هذا ممكن، **والنموذجان العبّاسي، والأندلسي** حاضران في الذاكرة، وشرط هذا كلّه مجتمعات يتوافر لها أمران أساسيان عند المستوى المعرفي الأعلى وهما: الحرية والوعي، وبغيرهما لا يمكن أن نتحدث عن مجتمعات تسودها الديموقراطية والتعددية والعدل والتسامح، ولا أظن أن إحساسًا قد يساور الذين يتمتعون بالحرية والوعي بأنهم مظلومون مادامت فرص الحياة الكريمة قائمة في سياق أمة واحدة؛ والأمة هنا حاضرة في الروح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العامة، وإن بدت مقسمة شعوبها بين خمسين كيانًا سياسيًا ويزيد. وإذا تراجع هذا الإحساس خسرنا الرهان على الحلم بزمان تنطبق فيه حدود الأمة على حدود دولتها، مهما كان الشكل المقترح لاجتماعها أو وحدتها أو ترابطها في كيان سياسي، إلى جانب ما في العالم من كيانات لأمم كما في الصين والهند وغيرهما.

يظل البحث في الموضوع الثقافي منصبًا على العناصر العامة في ثقافة الأمة، والتي أرى أن لا فصل فيها بين روح الإسلام وروح العروبة، وقد أخفقت الأشكال العلمانية الهجينة، والشموليات القومية، والتشدد اليساري في إعادة الإسلام إلى الزوايا الصوفية باعتباره شريعة لأهله، وليس رسالة للناس كافة تخرج بهم من الظلمات إلى النور، وتعلمهم معنى الحرية والتسامح والعدل وكرامة الإنسان، وتفتح لهم الآفاق على حوار ثقافي يستند إلى فهم عميق لما يجري في العالم من صراع أراه قائما بين طرفين، نمثل نحن الأول فيهما؛ وهو المستضعف والمقهور والمغلوب، ويمثل الآخرُ المستعمرُ القهرَ والعنف والهيمنة وإن ادّعى غير ذلك.

إننا لسنا، أعني أبناء الأمة، في حالة من ترف الحياة والفكر حتى تغرق في مثل تلك الصراعات الشديدة بين الدين والعقل وبين القديم والجديد. ولسنا أيضا في حالة ثقافية واضحة مبصرة حتى نفتح صراعًا جديدًا بين القومي والإسلامي، في الوقت الذي نعجز فيه عن وقف التشظي بين الطوائف الإسلامية. ولو قمنا بإحصاء تكاليف الفتن والانقلابات والحروب الأهلية وأسلحة الاستبداد، وصراعات الطوائف، لعرفنا أننا يحطم بعضنا بعضًا، ونحن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقراء وأيتام ومقهورون لا ننتج، ولا نزدّ هيمنة الآخر عنا، بينما الدنيا في شرقها وغربها تبني وتدخل إلى المستقبل، حتى لو كانت شعوبها في أودية ليست بذات نفط، وليس مطلوبًا أن ننكفئ على الجراح التي نحسّ بوخزها، وكرامتنا التي صارت خطاب حماسة، بل أن تستيقظ ضمائرنا وعقولنا على ضوء الحرية وتحديات الزمان الجديد.

قد يقول آخر إن شموليةَ الإسلام، وألَقَ الإبداع الإسلامي، والمنهج العلمي الذي عرفته الأمة، والعقل الذي استيقظ في بغداد والأندلس، يكفي كي يجعلنا على الطريق إلى حيث يصنع التاريخ والمستقبل، ويكفي أيضًا لتشكيل قاعدة ثقافية تحدد صلة الإنسان بالله، وصلته بأخيه الإنسان، ثم صلته بالكون من حوله، وقد توافرت لهذا الإنسان أنوار من الوحي والعقل والشعر تكفي لخروجه من ثقافة الخرافة والسطحية والاستبداد، وتكفي أيضًا لوصوله إلى حيث يصنع المستقبل، دون أن يلتفت إلى صراعات مفتعلة بين الديموقراطية والشورى، والعقل والوحي، والاستبداد والحرية، والشمولية والتعددية، ذلك أنه إن أضاءت له ثقافته في نسيجها الديني والقومي عَتمَ زمانه فسوف ينفك من العزلة والتبعية والإقليمية والتعصب، ويبدأ رحلته لإعادة تأسيس ثقافة حضارية متقدة، تفهم الدنيا، وتمثل مشروع حضور أمته في المشهد الإنساني صراعًا أو حوارًا، بل سوف تدفعه ثقافته للمساعدة في تحرير المقهورين من سطوة رأس المال الطفيلي، وظلم الحكام الفاسدين، والعلماء الخائفين، ثم إلى أفق جديد يحطم فيه الناس الإغلال، ويتحررون من الخوف، ويحطمون الأصنام؛ أصنام الاستبداد والمال والإعلام في فعل أجدادهم ذات بعث إسلامي عظيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعرف أن في هذا الكلام انزياحًا نحو حماسة قد لاتتفق وهدوء البحث العلمي، لكنني أرى أن جزءاً من الخواء الذي يغطي أرواحنا بالصدأ موجود في منطقة الوجدان، **ويقظة الوجدان على الحياة صعود بالروح والرؤية نحو زمان جديد عاقل وحرّ، تكون فيه الروح والرؤية ممتدتين في الأفق القومي والمناخ الإسلامي دون تناقض**؛ ومن حقّنا أن تكون الثقافة صورة لأشواقنا الروحية والقومية والإنسانية، ولنا في حال الهند إن ذكرت ثقافتها، وفي حال الصين إن وصفت رؤاها، لنا فيهما مثالان واضحان، حتى لا تبدو السبل ضيقة، وتنسد الدنيا علينا كما انسدت على المتنبي يوم أرّقه فراق جدّته:

وما انسدّت الدنيا علي لضيقها ولكنّ طرفًا لا أراك بـــه أعمى

ومناطق العمى في حوارنا الثقافي كبيرة وواسعة، وما العمى الذي يصيب المثقفين منا إلا نتاج لتنكرهم لزرقاء اليمامة التي كانت ـ ولابد أن تظل ـ نموذجهم في الاستشراف والرؤية المبصرة، حتى لو دفعت عينيها الرائعتين ثمنًا لذلك.

إنني لا أتذرّع هنا بحسن النيّة وطيب الظن، فلو كنت كذلك ما قلت الذي أقول، ذلك أن النوايا الحسنة في حالات كثيرة، تعبير عن سذاجة وقبول خانع بما يجري، لكنه يُغطي باسم النوايا الطيبة.. لذلك أقول: إننا في زمان «مقشعر»، ومن حولنا رؤى تبدو برّاقة وهي خادعة، ومنها هذه الدعوات التي وصلت مع إعلام المحتلين والطامعين، وتأسست لها مراكز، ودفعت لها رشاوى باسم دعم انتقالنا إلى العالم الذي تشغله حقوق الإنسان، والبيئة، وانتشار الديموقراطية. وكأننا لم نقرأ درسنا من عبد الرحمن الكواكبي وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصيح في كتابيه بالإصلاح والحرية والشورى، ويؤسس مشروعًا ثقافيًا بدأ في حلب، كما بدأ المشروع الاستشهادي الثقافي أيضا من حلب، في روح فتى اسمه سليمان الحلبي، روحه تطوف حول القاهرة، وأعضاؤه موزعة في متاحف باريس.

يقول الكواكبي: «وعندي أن البليّة فقدنا الحرية، وما أدرانا ما الحرية. هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرّم علينا لفظة حتى استوحشناه؛ وقد عرف الحرية من عرّفها: (بأن يكون الإنسان مختارًا في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحرية تساوي الحقوق، ومحاسبة الحكام باعتبار أنّهم وكلاء، وعدم الرّهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها: حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحث العلمية؛ ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدّار مغتال؛ ومنها الأمن على الدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض، والأمن على العلم واستثماره، فالحرية هي روح الدين..» (الأعمال الكاملة/ ٢٩٠).

إنّ الثقافة لغةٌ وتاريخٌ ونسق حضاري، وقيم فيها حرية وعدل وتسامح ومروءة وشجاعة، وروحٌ ووحيٌ وسكينة، فهل يمكن أن نطرح سؤالاً بسيطًا في الواقع العربي!! هل يشكو أحد من انفصام بين عروبته وروح الإسلام الذي يشكل رؤيته والإطار الرئيسي لحضارته وحضوره؟!! أم أننا ندخل في تهيؤات التصور العربي القاصر لحضارتنا، سواء أكان استشراقًا قديمًا أم مراكز دراسات قاصرة، أم دراسات عن صراع الحضارة ونهايات الدنيا والعالم، ظهرت في سياق اندفاع راعي البقر الهائج نحو العالم الخارجي، مخلّفًا وراءه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قيمًا جميلة في بلاده، تخلّى عنها لصالح نماذج غادرت زمن همنغواي ومارك توين إلى زمن غوانتانامو وأبو غريب...

أقول: إننا نتحدث عن الإنسان لا عن السلطة، وعن الإنسان المثقل بالكوارث والمجاعات والاستبداد لا عن الجامدين والجاحدين والخائفين والمستبدين، ونتحدث عن المتحول مع فهمنا للثابت بحدوده النصية والتاريخية، دون أن يغلق أحد علينا باب التفكير في مصائرنا ومستقبلنا.

نتحدث في زمان يشبه مقدمة تشارلز ديكنز لرائعته «قصة مدينتين»، كان أفضل الأزمان، وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة، وكان عصر الحماقة، كان عهد الإيمان، وكان عهد الشك، كان موسم النور، وكان موسم الظلام، كان نبع الأمل، وكان شتاء اليأس، كان لدينا شيء، ولم يكن لدينا أي شيء، كنا جميعًا متجهين إلى السماء، وكنا جميعًا في طريقنا إلى الاتجاه الآخر».

نتحدث عن ثقافة تشكل لنا «الفرج بعد الشدة» و«العواصم من القواصم»، و«إغاثة الأمة بكشف الغمّة»، وهذا لا يكون إلا بإنهاء عزلة المفكرين، وإعادة المثقفين من الهامش إلى المتن، وبث الوعي في الجامعات حتى تتشكل للعقل مدرسة جديدة تنير الدروب والكهوف في هذا العالم العربي الإسلامي، وتأذن للنهر أن يتدفق دون أن يغلق أحد عليه دروب مجراه، «ولأبي محجن العربي» أن يقاتل دون أن يصادر السلطان سيفه وفرسه وهواه. وأضيف: نتحدث والإقليمية تشكل لذاتها سمات وطنية ونرى دولا تتشظّى، وتتنكر كلها للأمة على الرغم من وحدة اللغة والرسالة والتاريخ والأشواق والفقراء والأطفال، نعم: تجمعنا الثقافة، وتفرقنا السياسة، توحدنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحرية، ونتشظّى تحت سياط الاستبداد، نلمّ شظايا الأمة، فيوغل السياسيون في التفكيك، نزرع الأمل، وينشرون اليأس، ندعو إلى التسامح فيتحد المتطرف والمستبد على القتل وتأسيس السجون فأي الطبقات نخاطب وقد استبدت بنا البروجوازيات التابعة والرأسماليات الطفيلية، وتحالفت مع الآخر ـ العدو، في زمن العولمة المتوحشة.

وأعود إلى نداء «إغاثة الأمة بكشف الغمة» والغمة هنا ظلمات لا ينفع فيها دم السلطة ولا حبر الكتابة، ولا أظن شيئًا غير دم ثائر يستطيع أن يضيء الليل الذي أرخى سدوله، ففي زمن الرؤى المصادرة، والأفكار المقيّدة، والحرية الحبيسة، والعدالة الغائبة، والجماهير التي تموت عطشًا وأميّة وقهرًا، في مثل هذا الزمان: لا يطلب الفقراء غير الستر. والستر عباءة من الحرية، أو خضاب من دمها، أو موت كريم على تراب لم يمسسه الاستعمار والاستبداد بعد، أو لا يظل فيه عميل أو خائن.

ويبقى في النهاية تصور بوطن واحد متعدد البيئات، واللغات والمجتمعات، لكن الثقافة فيه إطار أو نسيج أو قنديل وليس مطلوبًا أن يشكل الساسة منها أيديولوجية شمولية، أو آراء جامدة لا تتفق وحركة الحرية والحياة في هذا الوطن الواسع، وليس مطلوبًا أن يقرر أحد في دولنا موضوع «الأمن الثقافي»، إذ لم أسمع بمصطلح أشد غرابة وإثارة للاستغراب من هذا، لأنه انتهاك للحرية، وإعلان للاستبداد، وكفانا ما تفعله السلطة بالحريات بينما نحن نحلم بحدود مفتوحة بين أقطار الأمة، وجامعات متعاونة في المعرفة والبحث الفكري ومواجهة التحدي الحضاري، وإعلام يفهم العالم ولا يقع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فريسة لغباء أهل العولمة، وحريات لا تترك مجالاً للأيديولوجيات الحزبية الشمولية، والقادة الملهمين.

أوطان فيها لكل منّا صاحبته التي تؤويه، وصاحبته الحرية،

وضالته التي ينشدها ، ولابد أن تأخذ شكل العدالة،

وحلمه الذي يجري وراءه مشتاقًا وشهيدًا، وشكوكه التي لا تنتهي حتى لا تفرض عليه قوالب جامدة باسم السلطة والوطن والمستقبل، فهل بعد هذا نطمع في بناء دون تقويض!

أتحدث عن العدم لا عن الخراب.

وعن تحرير المواطن من نزعات اللاأدرية، والاستلاب، والتردد، والعزلة والتعصب وأمراض الاكتئاب والانفصام التي أصابته بها الأنظمة، والسياسيون، والأمنيون، والإعلاميون، لأنه لم يؤجر قلمه وعقله لصالحهم.

لست حالماً ببطولات، بل بمواقف تحترم المبادئ والقيم الكبرى في الحياة، خاصة ونحن نتحدث عن الثقافة؛ **إن الأمر منوط بالتحرر الذاتي والوعي على الواقع والمستقبل، حتى تصعد الأمة إلى يقظة باهرة تدخل بها دروب المستقبل، بثقافة تستكمل عناصر الحياة الكريمة كما أراد الإسلام بروح رسالته العظيمة**، وكما أشرقت العروبة على العالم بهجة وجمالاً وتسامحًا.. إنّها ثقافة الدفء الإنساني المثقلة بالشمس، والأجيال الجديدة بعقولها المتفتحة، ومختبراتها، ووعيها على الحرية والحق والشهادة.

ومن أجل اليقظة لابد من معركة للتمرد على التفسير النفطي لحركة التاريخ، وللتحرّر من هيمنة الآخر واستعماره الجديد، ومن ثقافة التعصب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخرافة والإقليمية، والفِرَق التي تشبه تلك التي كانت في الأمة عبر القرن الرابع الهجري ذبحًا وشتاتًا. من هنا، أرى أن على العقلاء (من الأكاديميين والمثقفين والإعلاميين) أن ينحازوا إلى شروط التحرر مهما بدت المرحلة معقدة، وأن ينسجوا ما تناثر من خيوط الائتلاف بين أبناء الأمة، فالواقع ليس حكرًا في تفسيره على دعاة الليبرالية الغربية الذين قبلوا نهاية التاريخ بانتصار الرأسمالية، ولا على المتزمتين الذين أغلقوا الكهوف على أنفسهم ومنعوا الاجتهاد، والعدالة ليست حكرًا في فهمها على التكنوقراط الذين يملكون الوسائل ولا يعرفون شيئًا من مناهج التقدم والحياة.

فهل ينتهي الإرهاب الفكري الذي فرض على الأمة في مراحل مختلفة، ويتوقف ظلم القريب والبعيد لأمتنا التي يتقاسم الناس دمها وخبزها منذ زمن هولاكو وريتشارد قلب الأسد إلى اليوم، وخير لها أن تكون خرابًا أرضها من أن تظل خانعة خائفة. كل هذا لا نصنعه نحن، بل تصوغه روح ثقافة توحد الناس على الجوامع التي لا يختلف فيها الأحرار والعقلاء، والذين يؤذّنون في الناس بالحرية والعدل وحق الحياة؛ وينبّهون الناس إلى الفتن التي تطل برؤوسها من كل مكان وفي كل زمان.

إن الفعل الثقافي الحقيقي استعادة لليقين الذي انهار في نفوس الناس، وتوقف عن نظرية المؤامرة التي نخبئ وراءها إخفاقنا الذريع في تحقيق حضور فاعل في دورة التاريخ والحياة، وهو أيضًا نسق معرفي ينتج خطابًا قوميًا جديدًا، ومراجعة لحالة النسيج العروبي في صلته بالروح الإسلامية،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورفض للأوهام والخرافات التي تملأ كتبها الشوارع العربية، والفضائيات البائسة بلغتها وإعلامها، وحصادها المرّ على مرأى من الفقراء والمقموعين واليائسين.

الفعل الثقافي تمثيل حقيقي للناس الذين يحملون عبء البقاء في صحارى الوهم والعطش العربية، وهم اليتامى الصادقون في المشهد الزائف الذي يجمله أناس منا وظفتهم السلطة أو الاستعمار لنشر الوهم بدلاً من الغوص في المستويات المعرفية الإنسانية، وجرّ الناس إلى التعصب الذي يعمي أبصارهم فلا يقبلون النقد ولا الشك ولا الرأي الآخر، ويظنون أنهم مالكون للحقيقة المطلقة في الدنيا وما وراء الدنيا، **وهؤلاء المعجبون بديموقراطية الاحتلال في العالم العربي هم الطاعون الأكبر في الحياة الثقافية العربية**، وقد صارت لهم منتديات، ومنابر، ووسائل إعلام، وتمويل، وهم قادرون على «التسويغ» لما تريد السلطة نشره بين الناس، والتنظير لما يريد الآخر المحتل فرضه علينا، لذلك فإن ثقافات التبرير، والخرافة، والمقاولات الأكاديمية وغير الأكاديمية، والجوائز، تعطل علينا قيامتنا القادمة باسم الأمة منذ أن صاح الكواكبي في أم القرى إلى أن نادى الماغوط قبل رحيله: «سأخون وطني» لأنه لم يعد وطنه.. ويوم يشتعل أوار الفتنة التي سماها عبدالإله بلقزيز («الحرب الأهلية الفكرية» ـ نهاية الداعية ص ٧٢) نكون قد وصلنا متأخرين لإخماد نارها، بعد أن استزفت العقل، وألقت بالتسامح في غياهب النسيان؛ ونبدأ مرحلة مِنْ تسوّلِ الحرية والثقافة أو تسوّل من السلطة... وهذه ذروة المأساة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إضاءة(٤) ختام:

نحن اليوم أمام زمن جديد يشبه القرن الرابع للهجرة، غنىً معرفي، ويأس سياسي، وفقر وسجون ودم على الدروب وفي الشعاب.. وتبدو الظاهرة الثقافية عند حدود التشظي على الرغم من النيات الطيبة، حتى لو جاءت من ممثلي السلطة السياسية ـ وزراء الثقافة مثلا، ومع أن المشهد الخارجي يشير إلى ازدهار التعليم هنا وهناك، ونشوء جامعات بأعداد كبيرة وتحوّل واسع في حركة نشر الكتب والصحف، فإنني لا أعوّل على هذا كلّه، فقد يقع مثله في مناخ يسيطر عليه حكام مستبدون في باب التظاهر، وتنفيذ الحدود الدنيا من رغبات الناس، لكنني أود أن نمعن النظر في المسكوت عنه في ثقافتنا المعاصرة، التي يتقاسم مشهدها أصحاب تيارات متناقضة من النخبة التي يفترض أن تشكل عقل الأمة وضميرها؛ وهم: النفعيون، وفيهم أساتذة، وفقهاء، وكتاب، وإعلاميون، وقد تواردوا على ينابيع السلطة أو تحالفوا معها، وظن بعضهم أن الإصلاح يبدأ من هنا. الإصلاحيون، وهم الوسطيون الذين لا يريدون أن يفجّروا غضبًا عارمًا في نفوس الناس أو في نفوس السلطة، وهم جزء كبير بين هذه الفئات، وتسعفهم مصطلحات الاعتدال والوسطية، ومصلحة الأوطان، لكنهم لا يقومون بدور تنويري جذري. المحتجّون، وكدت أقول الرافضون، لكنها درجة أعلى من هذه، وتقف بين الاحتجاج والثورة، وهم الذين يملأون الفضاء صراخًا، وهم في الغالب شفويون لا يشغلون أنفسهم بإرساء القواعد اللازمة للتغيير في المجالات التي يكثرون الاحتجاج حولها. الجذريون، وهم أهل الالتزام الأعلى بالأمة، وبينهم وبين الكواكبي نسب، وقد يصعب الحصول على دفاترهم لأنهم في الظل أو في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السجن أو في العزلة المفروضة. وهؤلاء منهم الإسلاميون والقوميون واليساريون والوطنيون، وهم أهل الرؤية المبصرة التي صاح من وجعها أمل دنقل: «لا تصالح»، ووقف محمود درويش عند حافة الحياة يوم نادى «نحبّ الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلاً»، وحدد إيقاعها أحمد عبدالمعطي حجازي:

«إنني ضائع في البلاد،
ضائع بين تاريخي المستحيل
وتاريخي المستعاد،
حاملٌ في دمي نكبتي
حاملٌ خطأي وسقوطي
هل تُرى أتذكر صوتي القديم،
فيبعثني الله من تحت هذا الرماد»..

فهل نحن على بينة من الأمر، وهل نميز ـ كما أراد الراحل يوسف الصائغ ـ بين الوطن الغالب والوطن المغلوب! أم أن الرؤية في الزمن العاصف والرياح العاتية لا تكون إلا لمن استعار عيني الآخر كي يبصر الطريق.. لقد صاح شاعر في القرن التاسع عشر:

أعرني طرف زرقاء اليمامة لا بصر ما ورا تلك الغمامة

ولماذا نذهب وراء الغمامة ونحن أحيانًا لا نستبين مواقع حركتنا الأولى في شوارع الوطن!!! وقد يقودنا مثقف مزيف يمثل دور كلب الحراسة لفئة ظالمة أو فاسدة أو عميلة!! (كلب الحراسة مصطلح من كتاب سارتر، دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت ١٩٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الختام:

يظل السؤال مشرعًا لجدل طبيعي بين أبناء الأمة حول حضور القومي والديني في ثقافته، لكنني لا أرى نقل الأمر إلى الجدل، لأننا لسنا أطرافًا متباينة أو متنازعة حول الإسلام والعروبة. وأعرف أن هذا الكلام حسن النية ونظري بحت، لأن في الواقع من جراح التعصب القومي أو العرقي أو الطائفي ما يشير إلى مستوى آخر من الجدل الذي لا يقبل به الذين يرون الأمة حاضرة في المشهد التاريخي، وإن لم ينطبق حضورها على كيان سياسي موحّد يحملها إلى المستقبل...

ومن حقنا أن نعلن أننا مسلمين ومسيحيين في دائرة الإسلام التي تشكل مظلة واسعةً لأبناء الأمة من عرب وأمم وشعوب وأفراد اختاروا الإسلام عبر العالم كله، سواء كانوا في الدول الإسلامية، أم يشكلون أقليات في دول غير إسلامية...

نعلن أننا نتمنى أن يكون لنا وجهنا الثقافي الذي يزيدنا إنسانية وحريةً، ونريده لا من أجلنا فقط بل من أجل هذا العالم الذي يبحث عن خلاص جديد. وأضيف أخيرًا أن المسلمين، والعرب منهم، منفتحون على حضارات غيرهم مثاقفة وتأثرًا وتأثيرًا وحوارًا مادام الأمر على قدم المساواة ودون قهر أو احتلال. وهم قادرون لو اختاروا ثقافة الحرية على بناء دولة ديموقراطية حديثة تتعايش فيها الأفكار والشعوب بسائر شروط العمل الديموقراطي الحقيقي بما فيه من حقوق وواجبات، وماله من أبعاد في الوعي والعدل والمساواة؛ وهم قادرون على ذلك بالفعل الذاتي الوطني، لأن الحرية ليست هبة من هذا أو ذاك، والديموقراطية ليست نتاجًا رأسماليًا، وحقوق الإنسان ليست إبداعًا غربيًا، وان فعلنا ذلك وصلنا بعد هجير التشظي والغضب والقلق إلى ظل موعود، وواحات آمنة، وفضاء جديد وبهيج.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المراجع :

- المثقفون والسلطة في عالمنا العربي، كتاب العربي، الكويت، ١٩٩٩، ص ١٠١ ومن هؤلاء المفكرين:

ـ محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة الإسلامية، ١٩٩٥، بيروت.

ـ علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦.

ـ الطاهر لبيب؛ سوسيولوجيةالثقافة، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٦.

ـ إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، دار النهار، بيروت، ١٩٩٦. .

ـ علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ١٩٩٦.

ـ خالد زيادة، كاتب السلطان، حرفة الفقهاء والمثقفين، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١.

ـ جيل كيبل ويان ريشار، المثقف والمناضل في الإسلام المعاصر، ترجمة بسّام حجّار، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٤.

ـ هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار، بيروت، ١٩٧١.

ـ زكي الميلاد، محنة المثقف الديني مع العصر، دار الجديد، بيروت، ٢٠٠٠.

ـ جلال أمين، المثقفون والسلطة...، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١.

ـ محمد الشيخ، المثقف والسلطة.. دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١.

ـ عودة الاستعمار، مجموعة من الكتاب، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١.

ـ صلاح عيسى، مثقفون وعسكر، مواجهات وتجارب وشهادات عن حالة المثقفين في ظل حكم عبدالناصر والسادات. الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

ـ سماح إدريس، المثقف العربي والسلطة، بحث في رواية التجربة الناصرية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

ـ محمد جابر الأنصاري، انتحار المثقفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربية، المؤسسة العربية للدراسات بيروت، ١٩٩٨.

ـ الصادق النيهوم، محنة ثقافة مزوّرة، صوت الناس أم صوت الفقهاء، دار رياض الريس للكتب والنشر، دمشق ١٩٩٦.

ـ غالي شكري، مرآة المنفي، أسئلة في ثقافة النفط والحرب، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.

ـ عبدالإله بلقزيز، نهايةالداعية، الممكن والممتنع في أدوار المثقفين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.

ـ عبدالسلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٤.

ـ إبراهيم غلوم، الثقافة وإنتاج الديموقراطية، المؤسسة العربية للدراسات والتربية، بيروت ٢٠٠٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com